(تفسيرُ الشَّيخِ البرَّاك)

القارئ: أعوذُ باللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ: {فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧) سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [الأنعام:١٤٧-١٥٠]

الشيخ: إلى هنا، لا إله إلا الله، مُحَمَّد! نعم.

(تفسير السعدي)

القارئ: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي –رحمه الله تعالى– في تفسير قوله تعالى:

{فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} الآيات:

أَيْ: فَإِنْ كَذَّبَكَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ، فَاسْتَمِرَّ عَلَى دَعْوَتِهِمْ بِالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ {ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ} أَيْ: عَامَّةٍ شَامِلَةٍ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا، فَسَارِعُوا إِلَى رَحْمَتِهِ بِأَسْبَابِهَا

الشيخ: لا إله إلا الله، {فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ} لجميع المخلوقات

القارئ: فَسَارِعُوا إِلَى رَحْمَتِهِ بِأَسْبَابِهَا الَّتِي رَأْسُهَا وَأُسُّهَا وَمَادَّتُهَا، تَصْدِيقُ مُحَمَّدٍ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فِيمَا جَاءَ بِهِ.

{وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} أَيِ: الَّذِينَ كَثُرَ إِجْرَامُهُمْ وَذُنُوبُهُمْ.فَاحْذَرُوا الْجَرَائِمَ الْمُوصِلَةَ لِبَأْسِ اللَّهِ، الَّتِي أَعْظَمُهَا وَرَأْسُهَا تَكْذِيبُ مُحَمَّدٍ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

الشيخ: رأسُها وأصلُها: الشركُ بالله وتكذيبُ مُحَمَّد، لأنَّ أول الخلاف معهم في التوحيدِ فهم مشركون، السببُ الأعظمُ لنيلِ رحمةِ الله هو التوحيدُ بعبادتِهِ وحده لا شريك له، وتصديقُ رسله، كما هو مضمونُ الشهادتَين: "شهادة أن لا إله إلا الله، وأن مُحَمَّدا رسول الله"، نعم.

القارئ: {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا} الآيات:

هَـذَا إِخْبَـارٌ مِـنَ اللَّهِ أَنَّ الْمُشْـرِكِينَ سَـيَحْتَجُّونَ عَلَـى شِـرْكِهِمْ وَتَحْـرِيمِهِمْ مَـا أَحَـلَّ اللَّهُ، بِالْقَضَـاءِ وَالْقَـدَرِ، وَيَجْعَلُونَ مَشِيئَةَ اللَّهِ الشَّامِلَةَ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ حُجَّةً لَهُمْ فِي دَفْعِ اللَّوْمِ عَنْهُمْ.

وَقَدْ قَالُوا مَا أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّهُمْ سَيَقُولُونَهُ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: {وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ} الْآيَةَ [النحل:٣٥] فَأَخْبَرَ –تَعَالَى– أَنَّ هَذِهِ الْحُجَّةَ، لَمْ تَزَلِ الْأُمَمُ الْمُكَذِّبَةُ تَدْفَعُ بِهَا عَنْهُمْ دَعْوَةَ الرُّسُلِ، وَيَحْتَجُّونَ بِهَا،

الشيخ: الاحتجاجُ بالقَدَرِ، يعني قولُهم: {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا} هو في نفسِه هذا المعنى صحيحٌ، لكنهم ما قالوهُ على وجه الإقرارِ بربوبيتِه وعمومِ مشيئتِه، قالوهُ معارضةً لدعوة الرسل ودفعًا لِلَّومِ عنهم، واحتجاجًا على شركِهم وأنه سائغٌ لأنه بمشيئةِ الله، والاحتجاجُ بالقَدَرِ حجةٌ داحضةٌ لا تستقيمُ لأحدٍ، لا تستقيمُ ولا لصاحبِها؛ فالاحتجاجُ بالقَدَرِ مع أنه باطلٌ في الشرعِ، فإنه باطلٌ في العقلِ؛ فإنَّ المحتجَّ بالقَدَرِ لو أُحتجَّ عليه به لم يقبلْهُ مِن غيره، لم يقبلْهُ مِن غيره، فهذا المحتجُّ بالقَدَرِ الذي يحتجُّ على المعصية، يحتجُّ لمعصيتِه لله وشركِه بالله بأنَّ هذا مكتوبٌ وأن هذا بمشيئةِ الله، لو ظُلِمَ وَاعْتُدِيَ عليه واحتجَّ عليه ظالمِه بالقَدَرِ لم يقبلْهُ منه، فهي حجةٌ باطلةٌ، حجة {حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ} [الشورى:١٦]

القارئ: فَأَخْبَرَ –تَعَالَى– أَنَّ هَذِهِ الْحُجَّةَ، لَمْ تَزَلِ الْأُمَمُ الْمُكَذِّبَةُ تَدْفَعُ بِهَا عَنْهُمْ دَعْوَةَ الرُّسُلِ، وَيَحْتَجُّونَ بِهَا، فَلَمْ تُجْدِ فِيهِمْ شَيْئًا وَلَمْ تَنْفَعْهُمْ، فَلَمْ يَزَلْ هَذَا دَأْبَهُمْ حَتَّى أَهْكَلَهُمُ اللَّهُ، وَأَذَاقَهُمْ بَأْسَهُ.

فَلَوْ كَانَتْ حُجَّةً صَحِيحَةً، لَدَفَعَتْ عَنْهُمُ الْعِقَابَ، وَلَمَا أَحَلَّ اللَّهُ بِهِمُ الْعَذَابَ، لِأَنَّهُ لَا يَحِلُّ بَأْسُهُ إِلَّا بِمَنِ اسْتَحَقَّهُ، فَعُلِمَ أَنَّهَا حُجَّةٌ فَاسِدَةٌ، وَشُبْهَةٌ كَاسِدَةٌ، مِنْ عِدَّةِ أَوْجُهٍ:

مِنْهَا: مَا ذَكَرَ اللَّهُ مِنْ أَنَّهَا لَوْ كَانَتْ صَحِيحَةً، لَمْ تَحِلَّ بِهِمُ الْعُقُوبَةُ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الْحُجَّةَ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ حُجَّةً مُسْتَنِدَةً إِلَى الْعِلْمِ وَالْبُرْهَانِ، فَأَمَّا إِذَا كَانَتْ مُسْتَنِدَةً إِلَى مُجَرَّدِ الظَّنِّ وَالْخَرْصِ الَّذِي لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا فَإِنَّهَا بَاطِلَةٌ، وَلِهَذَا قَالَ: {قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا} فَلَوْ كَانَ لَهُمْ عِلْمٌ –وَهُمْ خُصُومٌ أَلِدَّاءُ– لَأَخْرَجُوهُ، فَلَمَّا لَمْ يُخْرِجُوهُ عُلِمَ أَنَّهُ لَا عِلْمَ عِنْدَهُمْ.

{إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ} وَمَنْ بَنَى حُجَجَهُ عَلَى الْخَرْصِ وَالظَّنِّ، فَهُوَ مُبْطِلٌ خَاسِرٌ، فَكَيْفَ إِذَا بَنَاهَا عَلَى الْبَغْيِ وَالْعِنَادِ وَالشَّرِّ وَالْفَسَادِ؟

وَمِنْهَا: أَنَّ الْحُجَّةَ لِلَّهِ الْبَالِغَةَ، الَّتِي لَمْ تُبْقِ لِأَحَدٍ عُذْرًا، الَّتِي اتَّفَقَتْ عَلَيْهَا الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ، وَالْكُتُبُ الْإِلَهِيَّةُ، وَالْآثَارُ النَّبَوِيَّةُ، وَالْعُقُولُ الصَّحِيحَةُ، وَالْفِطَرُ الْمُسْتَقِيمَةُ، وَالْأَخْلَاقُ الْقَوِيمَةُ، فَعُلِمَ بِذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مَا خَالَفَ هَذِهِ الْآيَةَ الْقَاطِعَةَ بَاطِلٌ؛ لِأَنَّ نَقِيضَ الْحَقِّ لَا يَكُونُ إِلَّا بَاطِلًا.

وَمِنْهَا: أَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– أَعْطَى كُلَّ مَخْلُوقٍ قُدْرَةً، وَإِرَادَةً، يَتَمَكَّنُ بِهَا مِنْ فِعْلِ مَا كُلِّفَ بِهِ، فَلَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَى أَحَدٍ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى فِعْلِهِ، وَلَا حَرَّمَ عَلَى أَحَدٍ مَا لَا يَتَمَكَّنُ مِنْ تَرْكِهِ، فَالِاحْتِجَاجُ بَعْدَ هَذَا بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ ظُلْمٌ مَحْضٌ وَعِنَادٌ صِرْفٌ.

وَمِنْهَا: أَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– لَمْ يُجْبِرِ الْعِبَادَ عَلَى أَفْعَالِهِمْ، بَلْ جَعَلَ أَفْعَالَهُمْ تَبَعًا لِاخْتِيَارِهِمْ فَإِنْ شَاءُوا فَعَلُوا، وَإِنْ شَاءُوا كَفُّوا. وَهَذَا أَمْرٌ مُشَاهَدٌ لَا يُنْكِرُهُ إِلَّا مَنْ كَابَرَ وَأَنْكَرَ الْمَحْسُوسَاتِ، فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَرَكَةِ الِاخْتِيَارِيَّةِ وَالْحَرَكَةِ الْقَسْرِيَّةِ، وَإِنْ كَانَ الْجَمِيعُ دَاخِلًا فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ وَمُنْدَرِجًا تَحْتَ إِرَادَتِهِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الْمُحْتَجِّينَ عَلَى الْمَعَاصِي بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ يَتَنَاقَضُونَ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُمْ لَا يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَطْرُدُوا ذَلِكَ، بَلْ لَوْ أَسَاءَ إِلَيْهِمْ مُسِيءٌ بِضَرْبٍ أَوْ أَخْذِ مَالٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، وَاحْتَجَّ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ لَمَا قَبِلُوا مِنْهُ هَذَا الِاحْتِجَاجَ، وَلَغَضِبُوا مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الْغَضَبِ.

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يَحْتَجُّونَ بِهِ عَلَى مَعَاصِي اللَّهِ وَمَسَاخِطِهِ. وَلَا يَرْضَوْنَ مَنْ أَحَدٍ أَنْ يَحْتَجَّ بِهِ فِي مُقَابَلَةِ مَسَاخِطِهِمْ؟

وَمِنْهَا: أَنَّ احْتِجَاجَهُمْ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ لَيْسَ مَقْصُودًا، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ بِحُجَّةٍ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ مِنْهُ دَفْعُ الْحَقِّ، وَيَرَوْنَ أَنَّ الْحَقَّ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِلِ، فَهُمْ يَدْفَعُونَهُ بِكُلِّ مَا يَخْطُرُ بِبَالِهِمْ مِنَ الْكَلَامِ وَإِنْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَهُ خَطَأً.

{قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} أَيْ: قُلْ لِمَنْ حَرَّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، وَنَسَبَ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ: أَحْضِرُوا شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا، فَإِذَا قِيلَ لَهُمْ هَذَا الْكَلَامُ، فَهُمْ بَيْنَ أَمْرَيْنِ:

إِمَّا: أَنْ لَا يُحْضِرُوا أَحَدًا يَشْهَدُ بِهَذَا، فَتَكُونُ دَعْوَاهُمْ إِذًا بَاطِلَةً، خَلِيَّةً مِنَ الشُّهُودِ وَالْبُرْهَانِ.

وَإِمَّا: أَنْ يُحْضِرُوا أَحَدًا يَشْهَدُ لَهُمْ بِذَلِكَ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَشْهَدَ بِهَذَا إِلَّا كُلُّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ غَيْرِ مَقْبُولِ الشَّهَادَةِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَصِحُّ أَنْ يَشْهَدَ بِهَا الْعُدُولُ؛ وَلِهَذَا قَالَ –تَعَالَى– نَاهِيًا نَبِيَّهُ وَأَتْبَاعَهُ عَنْ هَذِهِ الشَّهَادَةِ–: {فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} أَيْ: يُسَوُّونَ بِهِ غَيْرَهُ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ.

فَإِذَا كَانُوا كَافِرِينَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ غَيْرَ مُوَحِّدِينَ لِلَّهِ، كَانَتْ أَهْوِيَتُهُمْ مُنَاسِبَةً لِعَقِيدَتِهِمْ، وَكَانَتْ دَائِرَةً بَيْنَ الشِّرْكِ وَالتَّكْذِيبِ بِالْحَقِّ، فَحَرِيٌّ بِهَوَى هَذَا شَأْنُهُ أَنْ يَنْهَى اللَّهُ خِيَارَ خَلْقِهِ عَنِ اتِّبَاعِهِ وَعَنِ الشَّهَادَةِ مَعَ أَرْبَابِهِ، وَعُلِمَ حِينَئِذٍ أَنَّ تَحْرِيمَهُمْ لِمَا أَحَلَّ اللَّهُ صَادِرٌ عَنْ تِلْكَ الْأَهْوَاءِ الْمُضِلَّةِ.

الشيخ: عافاك الله، أحسنتَ.